دراسات أدبية

بلاسكو ايبانيز

نقل رفاته من منفاه الى مسقط رأسه

بقلم محمد امين حسونه

رأت الجمهورية الاسبانية وقد تحققت اطماع رجالها السياسية واستقرت حركتها الانقلابية الدستورية ، أن تمجد الرجل الذى تقدم الصفوف ونفخ فى بوق الثورة ، فذهب ضحية مبادئه ؛ بعيداً

(بلاسكو ايبانيز)

عن البلاد التى لث نصف قرن ونيفا يخلص لها الحب ، حتى كانت « اسبانيا » آخر كلمة لفظتها شفتاه ، وهو يعانى آلام الموت فى منفاه . فلم تجد أليق من أن تعيد رفاته الى وطنه ليضمه ثرى « بلنسية » وهى البلدة التى انبثق من نواحيها فجر هذه العبقرية الفذة التى تحدث عنها .

فمن أسابيع خلت ، احتفلت الحكومة الاسبانية رسميا بنقل رفات الكاتب الشهير « بلاسكو ايبانيز » من مدينة « منتون(١) » بفرنسا ، على ظهر بارجة حربية حملته الى مسقط رأسه ، وقد كان الاحتفال بوصول رفاته يوما مشهوداً فى تاريخ اسبانيا ، ساهم الشعب فيه باظهار عواطفه السامية ، نحو الرجل الذى لبث يجاهد ويناضل ويذكى فى وطنه من حرارته وقوته ، لتظل فوهة البركان أبداً مشتعلة وهاجة !

عاش ايبانيز طيلة حياته متمرداً ثائراً ، لا يهدأ ولا يستقر ولا يعرف لبدنه عليه حقا ، كأنه موكل بتسخير قوى الطبيعة لخدمته حتى قيل : إنه سحابة من نار .

طالع فى فجر شبابه كل ما كتب عن الثورة الفرنسية ، وكان يشبهها « بالهرة » عندما تجوع لا تلبث أن تأكل صغارها ، ولكن الثورة لم تأكل صغارها ، بل أكلت زعماءها : دانتون ، ومارات وروبسبير . وكان مفتونا بروسو وفولتير ، يعجب بهما ويقول : هما اللذان مزقت أفكارهما وثائق العبودية ، وبفضل مبادئهما اشتعلت روح الثورة ، غداة الأول من ناحية القلب ، والثانى من ناحية العقل .

ولد بلاسكو فيسنت ايبانيز فى ٢٩ يناير سنة ١٨٦٧ بمدينة بلنسية ، وهى حاضرة الماطعة المسماة باسمها ، وقد اشتهرت بكتدرائيتها الأثرية ومنها خرجت طائفة من اعظم فنانى اسبانيا فى القرن الرابع عشر ، وقبل ان يبلغ العشرين من عمره ، اصدر صحيفة اسبوعية كانت تبث المبادىء السياسية المتطرفة فى ذلك الوقت ، كالجمهورية ، والدعوة الى الاشتراكية ونحو ذلك ، وحدث ان قدم ايبانيز الى برشلونة - مبدالثورة - ليخطب فى حفل سياسى ، فتناول فى خطابه الجمهورية والملكية ، واخذ يفاضل بينهما ، فقبض عليه رجال البوليس ، ولكنه قاوموهم واعتدى عليهم فحكم عليه بالسجن ، غير انه خرج من السجن وقد زاد ايمانا بمبادئه وتحفزا الى تحقيقها . فكون (الحزب الجمهورى الحر) وتقدم فى ضوء هذه المبادىء الى الانتخابات ، فنجح بالاجماع وانتخب نائبا فى البرلمان الاسبانى عن مقاطعة (بلنسية) ولم يمنعه اشتغاله بالسياسة من ان يتفرغ للادب والكتابة ، وهو بلاشك اعظم كاتب ظهر فى اسبانيا الى اليوم ، خلف وراءه ثروة ادبية زاخرة ، تبلغ الثلاثين كتابا ؛ كل صفحة منها مشرقة اشراق النجم !

---

(١) تقع فى جنوب فرنسا على شاطىء البحر المتوسط وقد اتخذها ايبانيز مقاما له بعد صدور أمر الدكتاتور السابق بريمودى رفيرا بنفيه وتوفى بها فى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٨ أى فى مثل يوم ولادته .

لم تقتصر ثورته على الاوضاع السياسية التى كانت تشكو منها بلاده فحسب ، بل عرف أنه كان هدفا فى دائرة الادب ايضا ، ليبنى على انقاض القديم وجموده ، أدبا جديدا حيا له طابعه ومميزاته الخاصة ، والحقيقة ان العصر الذى بدأ فيه ايبانيز حياته الادبية ، كان فى حاجة الى من ينقض اركانه ، وكان يقول : نحن فى حاجة الى الثورة الادبية التى تدفعنا الى كشف مواطن الجمال وتؤدى بنا الى النور » .

ولكن هل أثرت تعاليم ايبانيز حقا فاخرجت الادب الاسبانى من الظلمة الى النور ؟ إن من يتذوق ذلك الفن العميق الرائع الذى خلده ايبانيز فى قصصه الممتعة ، امثال : فى ظل الكنيسة ، وامرأة جوبا ، العارية ، وفرسان الرؤيا الاربعة ، وفاجعة البحيرة ، وبحرنا ، وزهرة مايو ، واعداء المرأة ، ورمل ودم ، والاراضى المجهولة الخ ، ذلك الفن الذى كان يعتمد فى ابرازه على جمال التنسيق ودقة الوصف ، وارهاف العاطفة ويكسوه باشعاع الروح الدرامى الغامر ، حتى يجتهد فى أن يجعل من أدبه مرآة صافية لفنه الجميل ، تنعكس عليها مختلف الصور والأحاسيس ، فتشعر وأنت تطالع قصة له أن شعورك ووجدانك مرتبطان تماما بحوادثها ، وانها تمثل بلاده ونفسيتها أبلغ تمثيل ، وقد لا يصرفه كلفه باللوحة ومحاولة اظهار ، كامن الفتنة فى الصورة ، عن العناية بالاطار نفسه ، فتجده يقتنص المعانى ويصقل الألفاظ كما يصقل النحات الأحجار قبل البناء ، وولعه بالطبيعة يدفعه الى أن يجارى (زولا) فيرسم أبطاله وهم يعيشون بين مهادها بعيدين عن تلك العاطفة الزائفة التى تولدها الحياة المصطنعة فى المدن ، كما أن إعجابه بالبحر المتوسط — مهد جميع البطولات والأديان — يوحى اليه أن يجد من أعمال رجاله ، عوليس ، وبركليس ، وهنيبال ، والاشادة بشجاعة فرسانه ، وذلك فى قصته الخالدة Mare Nostrum

لفت ايبانيز انظار العالم الاوربى الى فنه خاصة والى الأدب الاسبانى عامة ، فترجمت مؤلفاته الى اللغات الحية وأولع الفرنسيون بقصصه فقدره وسام « جوقة الشرف » ، وهتف له شيوخ النقدة . فوصفه كورتيوس الناقد الالمانى « بأنه عبارة عن مأساة الخير والشر » ، وقال أحد القصصيين الامريكيين « لقد بدأ ايبانيز ينافسنا فى صناعتنا ، والاوفق أن نحطم أقلامنا ونبحث عن صناعة غير الأدب لنعيش » !

وقد غرست مبادئ فولتير فى نفسه كراهية رجال الدين والسخرية من أعمالهم ، فى قصته المسماة Dans l'ombre de la Cathedrale « فى ظل الكتدرائية » ، يصور لنا مفكرا اشتراكيا هو « جبريل لونا » ، يطالب بالاصلاح الاجتماعى فيكون نصيبه الاضطهاد من الكنيسة ، فيثور على رجالها ويحتج ويغادر بلده بعد أن يؤمن بأن لا كرامة لنبى فى وطنه ! ويطوف اوروبا ليبشر بمبادئه : ثم يران السلطات تطارده أينما حل ، فيعود أخيرا الى بلده مقصوص الجناح كسيرا ، ويضطر الى أن يعيش متخفيا مع أخيه الذى يمس حاذما « بالكتدرائية » ، أى يعود فيأكل من خبز الكنيسة التى يضمر لها البغض ، حتى اذا ما اشتد ساعده أخذ يكفر بنعمتها ويؤلب المجموع عليها ، يتخذ من خدامها تلاميذ له ، ويبث مبادئه بينهم ، فلا تلبث هذه المبادىء أن تسرى كالسم فى أبدانهم : يحملهم على سرقة أموالها وتحفها ، ولكنهم فى خلال السرقة يقتلونه ويمثلون به أشنع تمثيل !

ولعل فن ايبانيز يبدو قويا واضحا ، وافكاره مستوية ناضجة فى القسم السادس من القصة : عندما يحمى وطيس المناقشة بين جبريل واحد اتباعه ، فيبسط امامه حاله اسبانيا وجمود الكنيسة ، ويتعرض للفترة الذهبية من تاريخها ، فيذكر ان الاسبانيين أعظم من اليونان والبيزانطيين ، فهم الذين أهدوا البشرية « الدنيا الجديدة » ، وهم ارستقراطية الشعوب وسادة البحار ، قادوا الرواد فى سياحاتهم حول الكرة وجابوا الآفاق وبعثوا المدنية من مرقدها ، ولو أنصف التاريخ لجعل بلادهم وطن العالم الاول !

أما فى قصته « رمل ودم » فهو المتهكم اللاذع ، صاحب الاسلوب المتدفق الفياض ، يرسم لنا فى لباقة وسحر ، حياة مصارعى الثيران فلم يحاول ان يقلل من خطر هذه المصارعة الوحشية ، ولكنه هاجم الارستقراطية التى تمنى مجدها وتسليتها على شقاء هؤلاء المصارعين الذين يطلقون عليهم اسم « التريادور » . فبطل هذه القصة « جوان جالارادو » ، فتى يخرج من صفوف الشعب ليشق طريقه الى المجد بقوة ساعديه فيتمرن على مصارعة الثيران ولا يلبث ان يذيع أقرانه وينال نجمه ، وتمكنه شهرته وحياته الجديدة من ان يستمتع بكل ما كان يصبو اليه فى صغره ، يحارب الفقر والجوع ويعم بالثراء ووفرة المال ، ولكن القوة والشهرة لا تدومان ، فهو يخشى ان يفقدهما عند ما يقف فى ساحة المصارعة حاملا حياته بين ذراعيه ، ويرسم ايبانيز الى جانبه صورة أخرى يحملنا على التهكم والازدراء بها : صورة « كورتيس » وجدانية الحس متقلبة الاهواء تدعى « دونا سول » ، بعد ان تنتزع « جالارادو » من احضان زوجته ، تحبه ، وتعبده كبطل وتحاول ان تقرن نجمها بمجده

وشهرته ، ولكن عندما تحس بالفارق بينها كامرأة ارستقراطية تحتقر أصلاب الاشراف ، وبينه كرجل من عامة الشعب تحتقره وتتخلى عنه ، فيهوى نجمه ويفقد توازنه وهو فى ساحة المصارعة فينشب الثور قرنيه فى صدره ولا يلبث ان يقع مضرجا على الارض حيث تسيل دماؤه وتمتزج بالرمال ، يحملونه الى الخارج جثة هامدة ولكن الجمهور لا يلبث بعد قليل ان يصفق ويصيح طالبا مشهدا جديدا ليشبع نهمته ويرضى غريزته التى طبعت على ذلك ، منذ أن شهدت الدماء الاولى وهى تجرى على الارض : دماء هابيل .

* * *

وايبانيز قوى الايمان بروح الحضارة العربية التى سادت اسبانيا وظلت ترفرف فوق ربوعها زهاء ثمانية قرون ! تلك الروح المتوقدة التى نفذت الى الغرب فعلمته كيف يخلق من الحب أدبا عاليا ومن المرأة صنما معبودا ، مابرحت تمد المعجم الاسبانى بريع مفرداته وان تشع أنوار خيالها فتلهب قرائح كتابها وتسعر بحرارتها دماءهم فتدفعهم الى كتابة ، دون كيشوت ، و كوندلوكانور ، وغيرهما مما نرى آثار الفروسية العربية كامنة بين سطورها ، بل إن أثر هذه الروح ليبدو واضحا تماما فى مؤلفات وأشعار سلفادور ، رويدا ، والفريدو بلانكو ، وبيرس فالنتى وغيرهم ممن نراهم متأثرين بالخيال العربى الباهر

لقد صور بلاسكو ايبانيز بنار عاطفته المشبوبة تخيلاته عن حضارة أجداده العرب : فاودعها فى بعض قصصه ودافع عنها فى حماسة ويقين ، فهو وان كان يكتب بلغة اسبانية ، الا أنه كان يفكر قبل كل شىء بروح عربى ، وقد خلف وراءه أنصارا يحاولون اليوم جهدهم تحقيق ما كان يصبو اليه من اعادة الحضارة العربية الى « الفردوس الاسلامى المفقود » ، كى تنتعش النهضة الحاضرة من تراثها الخالد ، واعادة التعليم باللغة العربية ـ مفتاح الثقافة الاسلامية فى اسبانيا ـ ونشرها بين الجامعة ودراسة آدابها العالية ! وسوف يكون شأنهم بالنسبة لها فى اوربا شأن الموارنة عندما خدموها فى الشرق خلال العصور الغابرة

ينشر ايبانيز ظلال افكاره هذه على صفحات روايته (فى ظل الكنيسة) فتراه يمجد من شأن هذا الروح العربى ويصف شعوره على لسان احد ابطال قصصه فيقول :

« ان تاريخ اسبانيا الباهر لم يأت اليها من الشمال ولا من الكنيسة ، بل من الجنوب ومن العرب ، هؤلاء الرجال سمر الوجوه الذين وصلوا الى شواطئنا فى القرن الثامن من شمال افريقيا بعد ان سيطروا فى انتصاراتهم على أرقى الشعوب ، حملوا الينا الحضارة والتمدن ، حضارة اجيال امتزجت ببعض ، توامها فلسفة الهند وثقافة الفرس وآداب اليونان وفن البيزانطيين وأشياء اخرى من الشرق ومن الصين .

« احتضنت اسبانيا العرب ، ومكثتهم فى مدى عامين من ان يستولوا على حضارة سبعة اجيال ، رحب الشعب بهم لانهم فكوا وثاقه من استبداد ملوكه السابقين ، وكان استعمارهم استعمار الحضارة والنور والتسامح الدينى لا استعمار الوحشية والسلاح !

« وعندما استوطن العرب اسبانيا ، جعلوها .. كالولايات المتحدة الامريكية ، فى العصر الحاضر ، تعيش فيها جميع الأديان فى حرية ومساواة ، من غير تحيز ولا تعصب ، وفى الوقت الذى كانت شعوب الشمال تعيش فى ظلمات الجهالة وتتطاحن فى الحروب الدينية وتختلط بالاقوام البربرية ، كان العرب والاسبان واليهود ، يعيشون كتلة واحدة فى وئام ، يعملون فى سبيل اسعاد اسبانيا ورفاهية شعبها ، فتأسست دور العلم والجامعات وازدهرت الفنون وارتقت العلوم ونشطت الموارد الاقتصادية وبدأت اسبانيا تستيقظ لتشهد أنوار فجر جديد !

« وماذا عمل ملوك الكثلكة الذين أتوا إلينا من الشمال بعد ذلك ؟ نشروا الارهاب ومحاكم التفتيش ، أجلوا العرب واليهود ، طردوا العبقرية والحضارة ، واحلوا مكانهما : الدين والتعصب ، أطفأوا مصابيح العلم التى كانت تضاء من المساجد الاسلامية والبيع اليهودية ، ليضعوا مكانهما قناديل الجهل والجمود وخرافات رجال الكنيسة ، وعندئذ بدأت اسبانيا تتلاشى من العالم وتموت » .

يتشعب بنا الحديث لو شئنا أن نتحدث عن ايبانيز لنوفيه حقه ، وخير لنا أن نرجىء هذا الى فرصة يكون فيها المجال أكثر اتساعا ، وانما نختم هذه الكلمة بأن نقول ، إنه لما شبت نار الثورة الاسبانية الأخيرة التى انتهت باعلان الجمهورية ، كان ايبانيز فى مقدمة من ينيرون الخواطر ضد دكتاتورية الجنرال بريمودى رفيرا ، فاشتدت الخصومة بينهما ، وكان ايبانيز عزوفا عن الضيم فاتهم الملكية فى وطنيتها ، وكان هذا هو السبب فى ابعاده عن اسبانيا ونفيه ؟

محمد امين حسونه